



لا يرى سوى أشكالاً في الأبيض تتحرك، يعلم أن وعيه يضلُّ الطريقَ إليه، يستسلم بعدها للنوم الذي لم يعد مزعجاً، لأن الأحلام التي أزعجته لمدّةٍ طويلةٍ، لم تعد ترافقه. هكذا يمضي أيامه، ينتظر أن تأتي أميمة لتعطيه "حبة النوم"، أحياناً تطمئنُ عليه، ثمسُدُّ شعره الأسود المتناثر فوق وجهه، تداعبُ وبرّ ذقنه بكفيها وتبتسمُ له، أما هو فينتظرُ خفة جسده و من ثم غرقه في الفرشة الاسفنجية.

تحسُنُ الإنارةُ في المستشفى مع قدوم الربيع، لكن الفرخ والتجدد يبقيان على سوء حالتهما. ها هو الربيع الثالث لأيوب في المستشفى، ولا رغبة له بالفرار، بالأحرى لم يعد يؤمنُ به. آخر مرة هرب من هذا المكان وجد نفسه في مكان مليء بأمراضٍ أخطرَ ولكن لا أحد يعالجها. ومن بعدها أصبح يترك أفراد الطاقم الطبي يقتنعون بأنهم يعالجونه. لكن، وبما أنّ الربيع قد حلّ، والحديقة مفتوحة للتنزه، إذًا سيخرُج رغم اقتناعه بأن لا اختلاف بين الهواء المنعش أو هواءٍ لا صفة له، يتنفسُ هو في كلِّ الحالات. في إنتظار أميمة، يدخلُ الى الحمام ويرى انعكاس شكله قليلاً على البورسيلان الأبيض. لا يزالُ نحيلاً، غير أنّ ظلال شعره تفرغُه قليلاً، فهو قضى سنه في إعادة إطالته بعدما كانوا يجزّون شعيراته كلما سنحت الفرصة لهم. شعره يعطي ظلالاً بشعة، كأن لديه قرونًا استشعارية، يفتح حنفيه المياه وينظرُ الى يديه تحمران من برودة المياه، يضعُ قليلا من المياه على شعره، ينظرُ الى البورسيلان، لا قرونًا، يفتح الباب ويخرج من الحمام ويحيي أميمة بأدب.

“بدي روح على الجنية، حلو الطقس.”

يحسُّ برجفان صوتيه، لم يتكلم منذُ مدّة، منذُ المعاينة الأخيرة. لم يعتدّ أصلاً أن يطلب شيئاً، وكلُّ ما يقول لا يتخطى “إيه دكتورة.. لا دكتورة، ما بدي”. يتذكرُ قبلَ سنةٍ ونصفِ السنة حينَ كانَ يصرُحُ على الدكتورّة وأميمة وأي مخلوقٍ يراه. كأنّ صوته تغيّر، يفكرُ بالسبب، إذا كان الصدى أو البرد أو قلّة الاستعمال. تطلبُ منه أميمة أن يلبسَ معطفًا، الطقس لا يزالُ بارداً. تفتحُ بابَ الغرفة وتطلقُه نحو الكوريدور الواسع يمشي وهو يعلمُ أن لا علاقة للربيع في رغيته بالذهاب إلى الحديقة، ولا علاقة للطبيعة الجميلة، أو الأزهار. يريدُ أن يرى رجلاً، أي رجلٍ في المبدأ، يحبُّه جميلاً وجذاباً، ولكن ظروفه لا تسمحُ له في أن يكونَ ذا ذوقٍ رفيع. يمشي والممرضات اللواتي يعبرنَ بيتسمنَ له، يقرأُ الإرشادات المملقة على الحيطان، وهببط الدرج ويرى صورَ الرب يسوع تملأ المكان ويحدّقُ في جسده المصلوب.



“شفت يسوع شو تعذب؟”

“ايه .. حرام”

ربما حدّق كثيراً، ولا يدري إن كانت أميمهٌ تدري بما كان يفكر، يستمرُّ في الهبوطِ على الدرجِ ببطءٍ خلقها، فتناديه وقد سبقته الى بابِ الحديقة، فيسرِعُ خطواته متحاشياً النظراً في عينيها ومشتتاً الربَّ يسوع من ذهنه. تغلقُ البابَ ويراها تعاوِدُ صعودَ الدرج. الهواءُ يجمدُ مثلثاً من الدماءِ على وجنتيه، ودائرةٌ على أنفه، ولكنه لا يبالي. يلتفتُ يميناً ويساراً، تسعةُ رجالٍ في الحديقةِ ويضافُ إليهم الممرضونَ الذكور. يُخرِجُ علبه مارلبورو أبيضَ طويلٍ ويتوجّه ليجلسَ قرب شربل الممرضِ ويشعلُ منه السجارة.

يدخُنُ أيوب سيجارته الثانية وينظرُ إلى الدكتورِ تقلبُ الأوراقِ، يداها جميلتان، غيرَ أنّ طلاءَ الأطافرِ الاحمرِ الذي تضعه يجعلهما تبدوانِ على وشكِ الانفجارِ، تنظرُ إليه وتبتسمُ :

“شو كيف حاسس، مبسوط؟”

“ايه الحمدلله، اشتقتُ للحياة برا، الشوارع والعالم”

يغصُ بالجملة لكنها تبتسمُ له، يسمُعا تكلمه عن الحياة وجمالها، وعن ثقيتها به وأمه . ينظرُ إليها وهو يريدُ أن يرى شيئاً آخرَ كحياتها، كيف يبدو زوجها، لا فكرةً لديه عنها . الدكتورُ حنان عزيزةٌ على قلبه وأكثرهم تعاطفاً معه، فقد أكملت هي علاجه في السنة الأخيرة، استطاعَ أن يخبرها أنه لا يستطيعُ أن يحبَ النساءَ وأنه لا يريدُ أن يتغيّر. ينظرُ إليها ترتبُ أوراقها وتبحثُ عن شيء ما، ويتمنى لو تعيدُ التفكيرَ بقرارها. لا يريدُ أن يذهب. يطرُقُ البابَ، تبدو أمه أكثرَ راحة، تعابيرُ وجهها عاديةٌ، لا يبدو أي حزنٍ أو غضبٍ كما العادة، تبدو هادئةً وهي تقبلُ الدكتورَ وتشكرها .

“شو يا أمي بدك تروح على البيت، بتسليني يا ابني، وبتساعدني بهل محل”

تقتربُ منه، لم يستطع الوقوفَ، تقبلُ وجنتيه وتضمُّ رأسه إلى بطنها وتمسُدُ شعره.



“الحمد لله صرت منيح والله هداك“. كأنها تكلمه وكأنها خرجت للتو من أحد سيناريوات الأخوين رحباني. تطلبُ منها الدكتورة حنان الجلوس، توقُّع الأوراق، وتطلبُ منه الدكتورة حنان أن يذهبَ لجلبِ حقائبه وتوديع أحدٍ إن رغبَ بذلك، يخرجُ وهو يعلم إنها ستحدث أمه عن مراقبته ومراقبة الدواء واستعماله الضروري .

يدخل الغرفة، يأتي بحقيبته المحضرة سلفاً، تدخل أميمة، يغمزها “راح نشترك يا حلو، اوعا شوفك هون“. يحملُ الحقيبة. تدخلُ أمه ترافقها الدكتورة فيغمزها ويكي، يريد أن يبقى قريبها، تفزك رقبته، وتقولُ له إنها ستراه في عيادتها كل شهر.

خرج من المشفى يجرجرُ حقيبته معه، استأجرت أمه تاكسيّاً كحليّ اللون، منّت تضمُّ محفظتها الصغيرة إلى بطنها الكبير.

“يلا أبو علي“

“الحمد لله على السلامة“

“الله يسلمك“، يحسُّ وكأنه سيختنق.

يضعُ أغراضه في الصندوق، تجلس أمه بجانبِ السائق وهو في المقعدِ الخلفي، يفتحُ النافذة على مصراعها. يدورُ المحركُ ومعه ثلاثُ سنواتٍ من عزلةِ أيوب، تمشي السيارةُ نحو بيروت وتركض أفكاره خلقها.

طريقُ العودة إلى المنزل هي طريقُ العودةِ الثقيلةِ إلى المنزلِ نفسها، لم يتغيّر إحساسه مرة واحدةً خلال هذه السنوات. نفسُ الثقلِ وذاتُ الإحساسِ بالخطأ، وكأنه يعلمُ سلفاً أنه سيصلُ إلى المنزلِ الخطأ، لكنه لن يعتذر من ساكينة وبعودَ أدراجه، بل سيدخلُ ويناقشُ مع الساكنين فيه، لإعتباراتٍ أساسها خطأ، كونهم أنجبوه خطأ، وقاموا، أو على الأقل حاولوا، بتربيته وتعليمه أيضاً، على سبيل الخطأ.

سن الفيل تبدو مختلفةً، حميمة و أكثر امتلاءً، الطريقُ إلى النبعة يطيقُ على صدره فتتمهلُ السيارةُ، وتدخلُ الزاروبَ



الصغير، يَضَعُ بجسده على المقعد، يلصق نفسه جيداً على الجلد. النافذة تصبغ إطاراً، إذ تقاطع نظرائه سكان الحي وهم يعيدون تكرار تفاصيلهم اليومية .

الحقبة على الأرض، وهواء النبعة المديني، الضجة والعيون المنتشرة خلف النوافذ، ثقل جسده ومغادرة السيارة مخلّفة وراءها هواءها الساخن على جسده وهو بمشي نحو البيت الذي يساوي الأرض تماماً.

بيته يساوي ال-ل-أ-ر-ض. تماماً.

لم يعد يذكر اليوم الأول لوصوله وعودة تلك الأحاسيس إليه، وكأن السجاد العتيق البشع احتفظ بها له، تلك الملاحف السميكة للشتاء وأجساد إخوته وتنفسهم يمتزج مع أحلامهم في غرفة النوم.

لم يعد قبلاً إلى البيت في هذا الفراغ، الجميع قد غادروه، وفاء وعايدة و سهام وجهاد وعلي وحسن، غادروه إلى مكان آخر، إلى حياتهم التي اختارهم و سحبتهم نحوها، كبروا كلهم دفعةً واحدة، أنجبوا عائلاتٍ تشبههم، تفيضُ فقراً .

أُمّه لا تعتبر أن الوقت مناسبٌ كي يبدأ العمل فوراً، تخبره وتجلس على الكنية، تسوي بيدها مسند المقعد مبددةً بيدها غباراً وهمياً، تنظر إلى الأرض، صوت العالم الخارجي يشوش الصمت القاتل بينهما، يجلس على الكرسي مقابلها. يحسن بجسده يتساوى كما في وضعية جلوس جهاد حين يتحدث مع أمه حول أمور العائلة، يتذكر كيف كان يحدق إليه حين قرر "عرسانا" لأخواته و دبّر مهناً جديدة لحسن وعلي و قراره الزواج ووجه أمه المحدق بالأرض وهو يتكلم.

تنظر إليه وتقلع الإيشارب السميكة عن رأسها. ينظر إليها ويحدق بوجهها التعب، وشعرها المتعرق والملتصق بجلدة رأسها موضحاً هرمها المؤلم. يجلس ويسمع صوتها التعب يسأله إن كان جائعاً فينفي الأمر بحماسة الضيوف .

صمت وروائح الطعام يسودان المنزل، سريران في غرفة النوم وُضعا حديثاً، ربما أحدهما احتوى جسد أبيه وهو ينتظر أنفاسه الأخيرة. الحاج أبو جهاد ينتقل إلى رحمته تعالى، وأيوب في رحمة أخرى بين جلسات العلاج والأحاديث والأطباء المزعجين.



رُفَّ إليه الخبر شتاءً صباح أحد، حزن وقتها وفكر به مطولاً، تذكره حين كان يجلسُ عندَ بابِ الدكانِ، صراخه على نساءِ الحي وأسئلتهن الكثيرة. يتخيلُ استسلامَ الحاجِّ للموتِ، يتخيلُ لو أنه كان شبيهاً بأخواته وأنه يجلسُ قربَه مرتدياً السراويلَ السميقة الفضفاضة، ذا شنبٍ و أطفاله يلعبون عند السرير وهو يطمئن على حالِ أبيه. لكن شيئاً ما في تلك الفكرة يبدو له غيرَ مقنع، لا يدري إن كان الشنبُ أم اطمئنائه على أبيه.

يُمضي أيامه في مشاهدة التلفاز، أياماً يُفاجأ بوجوه أطفالِ أخواته الذين ما يزالُ يحاولُ جاهداً أن يفهمَ كل منهم لأي شقيقٍ أو شقيقةٍ يعود، وذلك في زياراتهم العابرة والقصيرة التي يتجاهل. المائة، الخمسون، والعشرون ألفاً التي تُدسُّ في يد الحجة منعاً للإحراج، من قبل إخوته، كلما هم المقتضبة المتقنة للمجاملات والتي لا تثيرُ مكاناً ما لأي عاطفة أن تتسرب، أجوبته المقتضبة المُتقنة لصورة المجنون سابقاً و التي تمنعُ أي أسئلةٍ وتفصيل حول ماضٍ، وأحاديثٍ مرّقت تلقائياً صله الرحم بينهم.

ينظرُ أيوب إلى النبعة كل مساء من نافذته المتساوية مع الأرض. يتأملُ الناسَ يفعلونَ الحياة. كل مساءٍ ينتظرُ دواءه ليرحلُ إلى ذاتِ البياضِ الثابتِ غيرِ المتحول. ولا يزالُ يستيقظُ على وقعِ أعمالِ أمه المنزلية والتي لا تنفكُ تعائبه.

“شفت مش الحياة أحسن من الموت”.

الكاتب: [سارة أبو غزال](#)